الترادُف في القراءات القرآنية -دراسةُ نماذج في الأسماء والأفعال-

synonymy in the quoranic reading samples study of nouns and verbs

د.خليل قاضي*

تاريخ الإرسال: 2020/08/12	تاريخ القبول:2020/09/11	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

سنبين في هذا البحث مفهوم الترادُف بين القدَماء والمُحدَثين مع بيان أسبابه وأثره اللغوي، وسنعرض لطائفتيْ المثبِتين والمنكِرين مع تعليل اتّجاه كلّ فريق..

وفي الجانب التطبيقي سنعتمد على نماذجَ من الألفاظ في القراءاتِ القرآنية في شِقّيها - الأسْماء والأفعال - بعد أن نستقرأ اللفظ في القراءة المتواترة أو الشاذّة ثمّ في كتب التفسير للوقوف على الدّلالة والمعنى وكذا في المعاجم اللغوية، ومن ثمّ الكشف عن وُجوه الاتّفاق والافتراق بين اللفظين أو مجموع الألفاظ مع بيان آراء العلماء في إثبات الترادف أو نفيِه والاستعانة بالدراسات حول اللهجات العربية خاصّة فيما يتعلّق بما ورَد منها في القرآن الكريم وقراءاتِه المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الترادف، القراءات القرآنية، اللهجات العربية، المتواتر، الشاذ.

Abstract:

This Research aims to define the concept of "synonymy " among the ancient an the modern scholars with elaborating on the factors and its linguistic influence on it .

As we have detailed about the two tendencies (rose who approved synonymy , and those who disapproved with their arguments and justifications to support their opinions.

المؤلف المرسل: خليل قاضى KhalilKaddi@gmail.com

* جامعة الجزائر1 khalilkaddi@gmail.com

In the application side we used samples of words from Quor'anic reading in both parts of nouns and verbs . After along check and study of the word in recurrent or exceptional (a typical) reading through the interpretation (exegesis) books to analyse the significance and meaning . Then in dictionaries to discover similarities and differences between two or a list of words with scholars views to affirm synonymy or deny it with the help of the Arabic dialects studies especially regarding Al Quor'an words and their different readings

***Key words**: synonymy; quoran ; quoranic reading ; arabic dialects*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

. مقدمة:

إنّ اللغة العربية لَتزهو بين لُغات العالَم بثرائها في مفرداتها وطرائق استعمالها وأساليب اشتقاقها وتنوّع لهجاتها بمحصول وفير لا نظير له في غيرها ، واللغةُ كائنٌ حيٌّ حين تتوفّر لها شروطُ النماء والتطوّر والحياة ، فكثرةُ الاستعمال تُعطي الكلمةَ الواحدةَ معانيَ ودلالاتٍ كثيرة ، ولا يكونُ في ذهنِنا عند استعمال الكلمة إلا معنًى واحدٌ ، ولما كان عددُ الاستعمالاتِ التي تصلُح لها كلُّ كلمة لا يُحدّ فمفرداتُ اللغة تزدادُ دون حدّ مادامت اللغةُ حيّةً[1].

وهكذا تضخّمت الثروةُ اللفظية للّغة العربية إلى حدّ إثارة فُضول الدارِسين الغربيّين بَلْهَ أبنائها، فهذا "إرنست رينان" أحدُ كبار الدارسين للّغات السّاميّة تأخذُه الدهشةُ وهو ينقُل عن الأستاذ "دوهامر " أنّه توصّل إلى جمْع أكثر من خمسةِ آلاف وستّمائة وأربعةٍ وأربعينَ لفظا لشُؤون الجمَل[2] ولأهمية قضية الترادُف في اللغة وبمعنًى أخصّ في القرآن الكريم وقراءاته ؛ حاولنا أن نقفَ على نماذجَ من المفرداتِ القِرائية التي يستشْكِلُها الدارسونَ ونؤصّل لها من مظانّها وقسّمنا البحثَ إلى ثلاثة مطالبَ ، جعلنا الأوّل : لمفهوم الترادُف عند القدَماء والمحدَثين ولأسبابه وأثره اللغوي ، وخصّصنا الثاني لمنكِريه ومُثبتيه وركّزنا في الثالث على الترادُف في القراءات القرآنية في الأسماء والأفعال ، جمعنا فيه طائفةً من المفرداتِ درسْناها على ضوء كُتب القراءات من حيث الكتابةُ والنطقُ وعلى كُتب التفاسير من حيث الدلالاتُ والمعاني .

الإشكالية:

إذا كان الشائعُ أنّ ألفاظَ القرآن الكريم تنفردُ بمعانيَ قائمةٍ بذاتها بعيدا عن غيرها من الاستعمالات اللغوية للألفاظ المتقاربة أو المتشابهة أو المتناظرة، فلِمَ استعملَ القرآنُ نفسُه الازدواجَ اللفظي للمعنى الواحِد؟

ولماذا يخالفُ كثيرٌ من المُحدَثين القُدامى في التركيز على وُجود الترادُف في ألفاظ القرآن الكريم؟ وما شواهِدُهم في ذلك؟ وهل القراءاتُ القرآنية أوسَعُ مجالا من القرآن الكريم نفسِه؛ لاحتوائها على لهجاتِ العرب ومن ثمّ وُرود الترادُف فيها لتعدُّدِها؟

وهل هذه التعليلاتُ التي ذهب إليها كلُّ فريق من النافِين والمُثبِتين للترادُف كافيةٌ لحسْم المسألة؟ أم أنّ الأمرَ لا يزالُ مجالا رحْبا للُّغويين والبلاغيّين؟

وما علاقةُ الترادُف بإعجاز القرآن البياني؟ أم أنّ الإعجاز في القرآن لا في القراءات القرآنيّة باعتبارهما متغايرَيْن كما نصّ على ذلك ابن الجزَري؟

الفرضيات:

ـ الترادُف مختلَف عليه في اللغة؛ ونقلُ الاختلاف إلى القرآن يُسقطُ حُججَ مُثبِتِيه لأنّ القرآنَ كتابٌ أحكِمت آياتُه ثمّ فُصّلت من لدُن حكيم خبير.

ـ صُلوحية القرآن لكلّ زمان ومكان يقتضي عدم إحاطتِنا بأوجُه الفَرق الدقيقة بين ألفاظِه وهذا هو الإعجاز.

ـ القراءاتُ القرآنية أوسَع مجالا من النصّ القرآنيّ المتّفق عليه ؛ وذلك لدُخول لهجات العرب المتعدّدة والترخيص بالقراءة ببعضِها ومنها في المقابل الشاذّ وقراءة الآحاد التي لا يجوز التعبّد بمُضَمَّنها.

أهدافُ البحث:

ـ رفع اللَّبس عن هذه القضية اللغوية الحسّاسة والخطيرة والتي جعلها بعضُهم تُكَأةً لإثارة الشُّبَه حول الأسلوب القرآنيّ المعجِز.

ـ التفريقُ بين القراءات القرآنية التي منها ما يُقرأ به ومنها ما لا يُقرأ به؛ والنصّ القرآنيّ المجمَع عليه من خلال مسألة الترادف.

ـ تجليةُ خفاء الفروق بين الألفاظ وعلاقته بالترادُف في اللغة وفي القرآن وقراءاتِه.

ـ الإسهامُ في إثراء الدراسات القرآنية في هذا الموضوع العزيز المادّة، فجُلُّ مَن كتبَ في الترادف قصَرَ بحوثَه على اللغة وعلى القرآن لا القراءات.

منهجية البحث:

أعْملنا في البحث ثلاثةَ مناهج رأيناها كفيلةً بأصالة الموضوع ومناسِبة لطبيعتِه، وهي: الاستقرائي والوصفي والتحليلي.

فالاستقرائي بتتبُّع الكلمات التي يوحي ظاهرُها بالترادُف في القراءات القرآنية ؛ وهذا كلّفَنا كثيرا في الاقتصار على بعضِها دون البعض الآخر لغزارة المادّة وتعدّد المظانّ عموما؛ ونَزارَتِها فيما يتعلّق بصميم موضوعنا.

والوصفي بدراسة خصائص الترادُف والأسباب الموجِبة له في اللغة وفي القرآن؛ وعرْض نماذج ممّا وردَ من الألفاظ المحتمِلة للترادف في القراءات القرآنية والوقوف على دلالاتها للوصول إلى تصنيفِها.

والتحليلي بالتدليل بالشواهد من اللغة ومن القرآن على صِدق الحُكم بالإثبات أو بالنفي لقضية الترادُف في القراءات القرآنية.

2 . المطلب الأوّل : مفهوم الترادف :

1.2 مفهوم الترادُف عند القُدَماء :

لغةً: الترادف : التتابُع ، وفي حديثِ بدر : (فأمدّهم الله بألفٍ من الملائكة مردفين) أي متتابعين يردُف بعضُهم بعضا ، والروادِف : الأعْجاز ، والمترادِف : كلُّ قافية اجتمع في آخِرها ساكنان ، والرّدْفان: الليلُ والنهار لأنّ كلّ واحد منهما رِدف صاحبِه[3].

اصطلاحا : عبارة عن الاتّحاد في المفهوم ، أو هو توالي الألفاظ المفردة الدّالّة على شيء واحِد باعتبار واحِد[4] ولا يكونُ اتّحادا في الذات كالإنسان البشر ، وحقّ المترادفين صحّة حُلول كلّ منهما محلّ الآخَر ، وفي القرآن الكريم أمثلةٌ كثيرةٌ منها (بثي وحزني) [5] ، (سرّهم ونجواهُم) [6] ، (شِرْعةً ومنهاجا) [7] ، (لا تُبقي ولا تذَر) [8] ، (إلّا دُعاءً ونداء) [9] ، (أطعنا سادتَنا وكُبَراءنا) [10] ، (صلواتٌ من ربهم ورحمة) [11]، (عُذْرا أو نُذرا) [12]، فالتركيب

يُحدث معنًى زائدا لا يوجَد عند انفرادِ المترادفيْن ، وإذا كانت كثرةُ الحروف تفيدُ زيادةَ المعنى فكذلك كثرةُ الألفاظ [13].

عند القُدَماء :

إذا استقرأنا كُتبَ اللغة والنحْو العربي القديمة ، نجدُ أنّ أوّل مَن أشارَ إلى قضيّة الترادُف هو سيبويه في قولِه : (فاختلافُ اللفظيْن لاختلافِ المعنييْن هو نحو : جلَسَ وذهبَ ، واختلاف اللفظيْن والمعنى واحدٌ : نحو : ذهبَ وانطلقَ ...) [14] ثم توالَتْ تصنيفاتُ اللغويين والنُّحاة في هذه القضية ، منهُم مَن جعلَها فصْلا في كِتاب ومنهُم مَن أفردَ لها كِتابا مستقِلّا ، وممن أفردَ لها كُتبا قائمةً بذاتها : أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى في (أسماء الخيل) و (كتاب السيْف)[15]، والأصمَعي في (أسماء الخمر) و(ما اختلفَ لفظُه واتّفقَ معناهُ) [16]، وأبو حاتم السّجستاني في (كتاب السيوف والرّماح) [17] ، والمبرّد في (أسماء الدّواهي عند العرَب) [18]، وابن خالويْه في (أسماء الأسَد) و (أسماء الحيّة) و (رسالة في أسماء الرّيح) [19]وغيرُهم كثيرٌ لا مجالَ لحصْر مؤلَّفاتهم في هذا الحيّز الضيّق .

ويُلاحِظ "نولدكه" أنّ المعاجمَ العربيّةَ قد تضخّمت جدّا ، على الأخصّ بسبب أنّها تذكُر التسْميات الشّعرية الشّخصية الخالِصة للأشياء على أنها كلمات خاصّة ، فحين يسمّي أحدُ الشّعراء الأسدَ مثلًا بالكاسِر بالأسْنان ويسمّيه شاعرٌ آخَر بالسّاحِق وغير ذلك ، فإن المعجَم العربيّ يأخُذ هذه التسْميات على أنّها ترادِف كلمةَ الأسد تماما [20].

وهذا واقعٌ في إجْراء صِفة من الصّفات بحيث تُطلق على مُسمّى معيّن ثم تَشيعُ حتى تنوبَ عن الاسْم في التعبير عن هذا المسمّى وتغدُوَ مرادِفةً له ، ولنا في كُتب اللغة توثيق ذلك بالتفصيل.

2 .2 مفهوم الترادُف عند المُحْدَثين :

لا يكاد يتّفق المحدَثون على مفهوم واحدٍ للترادف، فالاختلافُ واردٌ في اللغة واللغويّ والمنهج . أمّا اللغةُ فعاملُ الاقتراض من اللغاتِ الأجنبية يُثري اللغةَ التي اقترض لها بثروة من المترادفات اللغوية، فهذا أحدُ كبار اللغويينَ يحدّثنا عن اللغة الإنكليزية وكيف أثّر فيها عاملُ الاقتراض فيقولُ: (واللغةُ الإنكليزية لغةٌ غنيةٌ بصفة خاصّة بالمترادفات أو أشباه

المترادفات، بتعبير أدقّ، فهي قد فتحت البابَ على مصراعيْه للاقتراض من اللغة اللاتينية وما تفرّع عنها من لُغات وقد عملت بذلك على إثراء مصادر الترادُف فيها إثراءً واسعا واكتسبت ألوانا من المعاني الدقيقة والدّلالات المختلفة كما ظفرت بتنوّع في التعبير إلى درجة لم تصِل إليها أيّة لُغة أوربية أخرى) [21]، ولاحِظ الدقّة في التوصيف؛ فإنه لم يعمّم على اللغات الأخرى جميعا لعِلمِه بسَعة الثراء اللغوي للّغات غير الأوروبية وعلى رأسِها اللغةُ الأوروبية .

وكذا فصاحبُ هذا الرأي من القلّة القليلة التي ترى مسوّغا للترادُف من بين جَمهرة اللغويين المحدَثين، فهناك شِبه إجماع على إنكار الترادُف الكامل، فما دامت الكلماتُ مختلفةً صوتيا فلا بُدّ أن تكونَ معانيها مختلفةً كذلك [22] وهذا رأيُ "بلومفيلد" [23] أمّا "غودمان" فيرى أنّه لا يمكنُ أن نجدَ لفظيْن يحلّ أحدُهما محلّ الآخَر دون تغيير في الدّلالة الحقيقيّة؛ وعلى هذا فلو ادّعينا ترادُف كلمتيْن فإنّ عدم إمكانية تبادُلهما في بعض السياقات هو الدليلُ على أنهما لا تحمِلان المعنى نفسَه [24]، ويعلّل لغويٌّ آخَر وهو "ستورك" عدَم إمكان الترادُف بأنّ الكلماتِ تملكُ تأثيرا عاطفيا وإشاريّا يستحيلُ أن تؤدّيه الواحِدة عن الأخرى [25].

ومن عُلمائنا الذين أفاضوا في المسألة اللغويُّ الشهيرُ "إبراهيم أنيس" الذي يقرّ بوُجود الترادُف في جميع لُغات العالَم بلا استثناء بل هو واقعٌ مشاهَد [26]، ويضَع جملةَ شروطٍ إن تحقّقت أمكننا القولُ بأنّ الترادفَ واقعٌ بين كلمتيْن ، نلخّصها فيما يلي:

1 ـ أن تتّفق الكلمتانِ في المعنى اتفاقا تاما، فإذا تبيّن لنا بدليل قويّ أنّ العربيَّ كان يفهمُ حقّا من كلمةِ (جَلَسَ) شيئا لا يفهمُه من كلمة (قَعَدَ) قُلنا حينئذٍ: ليس بينهُما ترادُف.

2 ـ الاتّحاد في البِيئة اللغوية، إذ نعدّ اللغةَ المشتركةَ أو الفُصحى الأدبية بيئةً واحِدة، ونعدّ كلّ لهجة أو مجموعة منسجِمة من اللهجاتِ بيئةً واحدة.

3 ـ الاتّحاد في العصْر، فإذا بحثنا عن الترادف يجب ألّا نلتمسَه في شِعر شاعر من الجاهليّين ثم نقيس كلماتِه بكلماتٍ وردَت في نقْش قديم يرجعُ إلى العُهود المسيحية مَثلا.

4 . ألّا يكونَ أحدُ اللفظيْن نتيجةَ تطوّر صوتي آخَر [27] ولأنّ المترادفَ واقعٌ وكثيرٌ في اللغات، ألْفينا معاجِم خاصّة به تحاول إيضاحَ الفرْق في المعنى أو الأصل أو الاستعمال، ولنا كتابان شهيران في هذا، أحدُهما للشيخ "إبراهيم اليازجي" وهو (نُجعة الرائد وشِرعة الوارد في المترادِف والمتوارد) والثاني للأب "رفائيل نخلة اليسوعي" وهو (قاموسُ المترادفات والمتجانسات) وقد رتّب الأوّلُ كتابَه حسب الموضوعات بينما رتّبه الثاني على حُروف المعجم [28].

ونكتفي بهذه الأمثلة من آراء المحدَثين الشرقيين والغربيين لضيق المجال، ونلاحظ أنّ العلل التي يتعلّل بها جُلّهم تخرُج من الدائرة اللغوية إلى أبعادٍ أخرى هي من حيثياتها كالسياق والبيئة والإشارة والإيحاء والحُمولة الدلالية والمعرفية.

والرأيُ الوسط ـ في نظرنا ـ هو ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس بهذه الشروط المحدّدة للترادف بعيدا عن التعميمات التي تميّع القضية.

3 . المطلب الثاني: المُنكِرون للترادُف والمثبِتون له:

3 . 1 المنكِرون له:

أنكر كثيرٌ من العلماء اللغويين القُدامى وقوعَ الترادف في العربية والْتمسوا الفُروق الدقيقةَ بين الكلمات التي يوحي ظاهرُها باتّحاد المعنى، وقالوا بتبايُن اسْم الذات واسْم الصّفة أو صِفة الصّفة، وبدأ هذا في أواخر القرن الثالث الهجري ويبلُغُ أشُدَّه في القرن الرابع الهجري، فهذا "ثعلب" ـ اللغويّ الشهير ـ يقول صراحةً: (ما يُظنّ من المترادِفات فهوَ من المتبايِنات) [29] ونحا نحوَه تلميذُه "أحمد بن فارس" فكان يرى أن معانيَ الأحْداث التي تفيدُها الأفعالُ تشتملُ على فُروق دقيقةٍ لا تسمحُ بالقول بالترادف فيها، فكلماتُ (مضَى وذهبَ وانطلقَ، وقعدَ وجلَسَ، ورقَدَ ونامَ وهجَعَ) لا تؤدّي المعاني الدقيقة نفسَها، ففي "قعَدَ" معنًى ليس في "جلَسَ"، وكذلك القولُ فيما سواه [30] ففي كلّ واحدةٍ منها معنًى ليس في الأخرى، ويفصّل ذلك بمنطق جليّ فيقولُ: (ألا ترى أنّا نقولُ: قامَ ثمّ قعدَ...ثم نقولُ: كان مضطجِعا فجلسَ، فيكونُ القعودُ عن القيام، والجلوسُ عن حالةٍ هي دونَ الجلوس، لأنّ الجلْسَ المرتفِع، فالجلوسُ ارتفاعٌ عمّا هو دونَه، وعلى هذا يجري البابُ كلُّه) [31]

وذهب "ابن درستويْه" إلى استحالةِ أن يختلفَ اللفظانِ والمعنى واحدٌ (كما يظنّ كثيرٌ من اللغويين والنحويّين وإنّما سمعوا العربَ تتكلّم بذلك على طِباعها وما في نفوسِها من معانيها المختلِفة، وعلى ما جرَت به عاداتُها وتعارُفها، ولم يعرف السامعونَ لذلك العلّةَ فيه والفروق، فظنّوا أنها بمعنًى واحِد و تأوّلوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسِهم)[32]

ويرى بعضُهم أنّ الترادفَ غيرُ موجودٍ في العربية وإنما اختلقَه أربابُ المعاجم، ويستدلّون على هذا الرأي أنّ اللفظَ الواحِد يؤدّي المعنى المراد وهذا واضحٌ في اللغات العامّية فليس بنا حاجةٌ إلى دلالة أكثرَ من لفظٍ على هذا المعنى [33].

وهذا الرأيُ متطرّف في نظرته إلى عُلماء اللغة الأوائل الذين كانوا يتحرّوْن الصّحةَ في جمْع اللغة من أهلِها الفُصحاء ومن القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، كما كانوا على ورَع كبير مبسوط في كُتب التاريخ والأدب.

2.3 المُثبتونَ له:

ذهب علماءُ الأصول حين فسّروا وُقوع الترادف إلى وُجود واضِعيْن مختلفيْن وذلك (بأن تضَع إحدى القبيلتيْن أحَد الاسمين والأخرى الاسْم الآخَر للمسمّى الواحِد، من غير أن تشعُر إحداهُما بالأخرى، ثم يشتهر الوضْعان ويخفى الواضِعان، أو يلتبس وضْع أحدِهما بوضْع الآخَر، وهذا مبنيٌّ على كوْن اللغات اصطلاحية) [34].

وهكذا انتقلَ إلى اللغة رصيدٌ كبيرٌ من مفرداتِ القبائل وأصبح ذلك المجموعُ يكوّن جزءا من صِيَغها وألفاظِها، ولا غضاضةَ أن يستعملَ القرآنُ الكريم الذي نزلَ بلُغة قريش الألفاظَ الجديدة المقتبسَة إلى جانب الألْفاظ القُرشية، وبهذا يفسّر ترادف "أقسَم" و"حلَف" في قولِه تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم) [35] وقوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْر) [36] وترادُف "بعَث" و"أرسَل" في قولِه تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [37] وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين) [38] فقريشٌ كانت تستعمِل في بيئتها اللغوية الخاصّة أحدَ اللفظيْن في هذه الأمثلة؛ واكتسبت اللفظَ الآخَر من احتكاكِها بلهْجة أخرى وتُنُوسيَت الفروقُ بينَها فيما بعدُ حتى أصبح من حقّ اللغة التي ضمّتها إليها أن تعتبرَها مِلْكا لها ودليلا على ثرائها [39].

وهذا النموُّ اللغويّ صيّر للمعنى الواحِد ألفاظا كثيرةً جمعَها بعضُهم في كُتب قائمةٍ بذاتها، كما فعلَ "مجد الدين الفيروزابادي" صاحبُ القاموس؛ حيث ألّف كتابا سمّاه (الرّوْض المسلُوف فيما له اسْمان إلى أُلوف) وله رسالةٌ في العسَل سمّاها (ترقيقُ الأسَل لتصفيق العسل)وللجُرجاني رسالةٌ في المترادف [40] وللرّماني رسالةُ (الألفاظ المترادفة) وللأصمعيّ كتاب (ما اختلفت ألفاظُه واتفقَت مَعانيه).

ومن العُلماء اللغويين الكبار الذين قالوا بوُقوع الترادف مُطلقا ابن خالويْه، فقد روى ابن فارس عن شيخِه أحمد بن محمد بن بُندار أنّه قال: (سمعتُ أبا عبد الله بن خالويْه الهمَذاني يقولُ: جمعتُ للأسد خمسَمائة اسْم وللحَيّة مائتيْن) [41]

ومنهم حمزة بن حسَن الأصبهاني الذي جمعَ من أسْماء الدواهي ما يزيدُ عن أربعِمائة، وذكرَ أنّ تكاثُر أسماء الدواهي مِن الدواهي، كما أنّ مؤلّفي المعاجم والقواميس كانوا يجعلونَ من الألفاظ الأعجمية المعربة جزءا من عناصر اللغة ومفرداتها وعليها يَبنونَ نظرتَهم في انفراد اللغة بمزيّة الثراء العظيم [42].

ومن الأدلّة التي يتّخذُها أنصارُ الترادف حجّة دامغةً على صحّة اتجاههم تلك القصّةُ التي تُجمع عليها كتبُ الأدب (أنّ زيد بن عبد الله بن دارم وفدَ على بعض ملوك حِمْيَر فألْفاه في مُتَصيّد له على جبل مُشرف، فسلّمَ عليه وانتسبَ له، فقال له الملكُ: ثِبْ أي اجلِسْ، وظنّ الرجلُ أنّه أمرَه بالوُثوب من الجبل فقالَ: لَتجدُني أيها الملكُ مِطواعا، ثمّ وثبَ من الجبل فهلَكَ، فقال الملكُ: ما شأنُه ؟ فخبّروهُ بقصّتِه وغلَطِه في الكلِمة، فقال: أمَا إنّه ليست عندنا عربيَّتْ: مَن دخلَ ظَفَارِ حمَّر) [43].

ولو صدر لفظُ (وثبَ وقعدَ) بمعنًى واحِد عن قبيلةٍ واحدة وفي بيئةٍ واحدة لما كان ثمةَ احتمالٌ للترادف بين اللفظين ، أمّا إذا كان الاختلافُ بين اللغتين يبلُغ درجةَ التبايُن كما بين العربيةِ والفارسية أو بين العربيةِ واليونانية فهذا لا يستدلّ به على ثراء اللغة، وإنما الثراءُ يكون بين اللهجات التي تنتهي إلى أرومة لُغوية واحدة.

4 . المطلب الثالث: الترادف في القراءات القرآنية :

احتماليةُ الترادف في الألفاظ القرآنية التي ورَدت فيها قراءاتٌ مختلفةٌ كثيرة لا يمكنُ أن يستوعبَها بحثٌ ينشَر في مجلّة، ولكنّ الاقتصارَ على نماذج من شِقيها في الأسماء والأفعال يجلّي قضيةَ الترادف في الحقل القرآني وفي القراءات منه خاصّة؛ وذلك بالرجوع إلى كُتب الفنّ القِرائي والاستعانة بمعاجم وقواميس اللغة العربية للاهتداء إلى أصُول الألفاظ وتراكيبِها البنائية، وقد تخيّرنا ألفاظا قِرائية ثارَ حولها كلامٌ كثير وأسيلَ فيها حِبرٌ غزير لنقفَ على وُجوه الاتفاق والافتراق بينها، وهذه المجموعةُ التي انتقيناها يمكن أن تكونَ كافيةً كعيّنةٍ نحكمُ من خلالها على مثيلاتها.

1 . 4 في الأسماء:

الصّوفُ والعِهن: قوله تعالى: (وَتَكُون الِجبَالُ كَالعِهْنِ المنفُوش) [44] وهي قراءةُ جمهور القُراء، وقرأها عبدُ الله بن مسعود (كالصوف) [45] والعهن: الصّوف المصبوغ ألوانا، وكلّ صوفٍ عِهنٌ، والقطعةُ منه عِهنةٌ، وألقى الكلامَ على عواهنِه: لم يتدبّرْه [46] وباستقراء كُتب اللغة والتفاسير ومفردات القرآن نجدُ إجماعا على أنّ العِهنَ هو الصوف المصبوغ ولِذا فالترادُف واردٌ حتما بين اللفظين.

شطرَ، تلقاءَ: قوله تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسْجِدِ الحرَام وَحَيْثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَه) [47] ، قرأ الجمهورُ بـ (شطرَ المسْجد) و(شطرَه)، وقرأ عبدُ الله بن مسعود (قِبَلَه) مكان (شطرَه)، وقرأ ابنُ أبي عبلة (تِلقاءَه) مكان (شطرَه) [48]

ويذكرُ أبو عُبيد أنّ التّلقاء معناه (النحْوُ) في لهجة كِنانة [49] وإعْمال لفظة (تِلقاء) مكان (شَطر) يحتمِل الترادُف إذا لم يفرّق بينهما المفسّرون، ويؤكّد صاحبُ مفردات القرآن معنى الشطر بالجِهة والنحْو كما تذهبُ إليه كِنانة [50].

حَدَب، جَدَث: قوله تعالى: (حَتّى إذا فُتِحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون)[51] ، قراءة الجمهور (حَدَب)، وقرأ عبدُ الله بن مسعود وابن عباس ومجاهد وأبو الصهباء (جَدَث) [52] وقُرِئ (جَدَف) وهو القبرُ بلُغة تميم [53] والجدَثُ القبرُ بلُغة الحجاز أمّا (الحدَب) فهو ما ارتفعَ من ظهْرِ الأرض، والأصلُ في الحدَب حدَبُ الظّهْر [54].

وهنا لا يمكنُنا أن نجعلَها من المترادِفات لاختلافِ اللغةِ بين تميم والحِجاز في (جدَف) و(جدَث) وفي (حدَب) تشبيهٌ يكونُ ألْصقَ بالبلاغةِ منهُ إلى اللغة.

الصدَفيْن، الجبَلَيْن: قوله تعالى: (حَتّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتّى إذا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرا) [55] وبها قرأ الجمهورُ، وفي مُصحَف ابن مسعود (حَتّى إذا سَاوى بين الجبلَيْن) [56] والفِعل منه (صدَف) يجري مَجرى الصَّدَف أي الميل في أرجُل البعير أو في الصّلابة كصدَف الجبل أي جانبه [57]، والصّدَفان هُما الجبلان في لهجة تميم [58].

وعلى رغم الاختلافِ بين اللهجاتِ في قريش وتميم إلّا أنّ المعنى واحدٌ والترادفُ واردٌ جزئيا ـ إن صحّ التعبيرُ ـ بين اعتبارِ المعنى للجبَل كَكُلّ أو لجانبٍ منه.

جَنَفا، حَيْفا: قوله تعالى: (فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْما فأصْلَحَ بينَهُم فلَا إِثْمَ عليهِ إنّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ) [59] وهي قراءةُ الجمهور، وقرأ عليٌّ ابن أبي طالب ـ كرّم الله وجهَه ـ (حَيْفا) [60] ومعنى القراءتيْن أنّ (جَنَفا) من جنِفَ يَجنَفُ إذا جارَ والجنَف الميْلُ ورجلٌ أجْنَف أي مُنحني الظهْر، أمّا (حيْفا) أي ظُلما [61] فالجامعُ بين اللفظتيْن الميلُ والجوْرُ والظّلم وهو ترادف.

لازم، لازب: قوله تعالى: (إنّا خَلَقْنَاهُم مِن طِينٍ لَازِب) [62] وهي قراءةُ الجمهور، وقُرئ (مِن طينٍ لازم) ولم ينصّ صاحبُ المعجم على اسْم القارئ [63] وإنّما أوْردَ قراءتَيْ (لازم) و (لاتب) ولم ينسِبْهُما، واللازب: الثابت الشديدُ الثبُوت، ويُعبّر باللازب عن الواجِب فيُقال ضربةٌ لازب، واللزبة السّنَة الجدْبة الشديدة وجمْعُها اللزَبَات [64]

(وطينٌ لازب: أيْ لازق، قال الفرّاء: اللازب واللاتب واللاصِق واحدٌ، والعربُ تقول: ليس هذا بضربةِ لازم ولازب، يُبدلون الباءَ ميمًا لتقارُب المخارج، قال أبو بكر: معنى قولهم: ما هذا بضربةِ لازب أيْ ما هذا بلازم واجِب أي ما هذا بضربةِ سيْف لازب وهو مَثَل) [65].

ونحن نرى بعد استقراء كُتب القراءاتِ وتاريخها أنّ هذه الرخصةَ كانت في الزمان الأوّل تيسيرا على أولئك الأمّيين الذين يشقُّ عليهم تحويرُ ما اعتادُوه من لهجاتِهم بين عشيّة وضُحاها، ولكنّ الأمرَ اختلفَ بعد جمْع القراءاتِ واقتصارهم على ما اشتهرَ منها وتصنيفها

إلى متواترة ومشهورة وشاذّة فزالَتْ الرخصةُ وأضحى لا يُقرأ إلا بالعَشْر في التعبّد ولا يجوزُ ما سواها. واللفظتانِ مترادفتان وإلّا ما أجازَ ابنُ مسعود لذلك الرجُل أن يستعيضَ بها عن الأخرى.

2 . 4 في الأفعال :

أقْوَم، أصْوَب: قوله تعالى : (إنّ نَاشِئَةَ الليلِ هيَ أشَدُّ وَطْئًا وأقْوَمُ قِيلا) [66] وهي قراءةُ الجمهور، وقرأ الأعمشُ وأنسُ بن مالك (وأصْوَب) [67] وأوردَ الألوسيُّ روايةً عن أنس بن مالك أنّه قرأ (وأصْوَب قِيلا) فقال له رجُلٌ: إنّا نقرؤها (وأقوَم قيلا) فقال: إنّ أصوَب وأقوَم وأهْيأ وأشباهُ هذا واحِد [68]

فإبْدال الكلمات التي تؤدّي المعنى نفسَه في القراءة كان مُرخَّصا به قبل جمْع القراءات وتصنيفِها وزالَت بزوالِ الحاجة، فالألفاظ هذه إذ جوّزوا أن تتعاوَر بينَها دلّ ذلك على ترادُفها.

تستأنسوا، تستأذنوا: قوله تعالى: (يَا أيُّها الذينَ ءامَنُوا لا تدْخُلوا بُيوتا غيرَ بُيوتِكُم حَتّى تَسْتَأنِسُوا وتُسَلِّمُوا على أهْلِها ذلِكُم خيرٌ لكُم لعلَّكُم تذّكّرون) [69] وهي قراءةُ الجمهور، وقرأ ابنُ عباس وأبيّ بن كعب وسعيد بن جبير وعبد الله بن مسعود (حتّى تستأذِنوا) وفي قراءة لأبيّ وابن عباس (حتى تسلّموا وتستأذِنوا)، وفي قراءةٍ لابن مسعود (حتى تسلّموا على أهلِها وتستأذِنوا)، وفي قراءةٍ لأُبيّ (حتى تستأذِنوا لكُم والتسليمُ خيرٌ لكُم مِن تحيّة الجاهليّة والدّمور) [70] والدّمور هو الإهلاك والتدمير.

والاستئذان: طلبُ الإذن، والإذن: الإرادة والمشيئة، والاستئناس طلبُ الأُنس وقيل الإنس وهو خلاف النفور [71]والفرْق واضحٌ بين المعنيَيْن إذ فيهما تكامُل من حيث تأدِيةُ المعنى لكنّ الترادُف غير وارد .

قُدّ، قُطّ: قوله تعالى: (وإنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُر فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِين) [72] وهي قراءةُ الجمهور، وقُرئ (قُطَّ) ولم تُنسَب القراءةُ لصاحبها [73] (والقَدّ: القطْع المستأصِل والشقُّ طُولا، قال ابن دُريد: هو القَطعُ المستطيل... وفي الحديث أنّ عليًّا عليه السّلام كان إذا اعتلى قَدَّ وإذا اعترضَ قطَّ أيْ قطعَ طُولا وقطعَ عرْضا...وفي حديث جابر: أُتيَ بالعباس

يوم بدْر أسيرًا ولم يكُن عليه ثوبٌ فنظرَ له النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم قميصا فوجَدوا قميصَ عبد الله بن أبيّ يقدَّد عليه فكسَاه إياه؛ أيْ كان الثوبُ على قدْره وطولِه) [74] فالجامعُ بين اللفظتيْن هو معنى (الشَّقّ) إلا أنّ أحدَها طولا والآخَر عرْضا في جميع الاستعمالات.

يأتل، يتألَّ: قوله تعالى: (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) [75] وهي قراءة الجمهور غير أبي جعفر، وقرأ أبو جعفر والحسن وزيد بن أسلم وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة (يتألَّ) [76] وهو مضارع (تألّى) بمعنى حلف مكان (يأتل) وهو بمعنى: يحلف بلغة قريش [77] فالجامع بين اللفظين الحلف وهو معنى يجيز الترادف في الاستعمال القرآني وفي غيره.

5.خاتمة:

هذا ما سمح لنا الحيّزُ المتاح لإيرادِه، وقد انتقيْنا هذه الأمثلةَ التطبيقيةَ بعد الإمْعان في مطالعةِ كُتب القراءات، وهناك كثيرٌ غيرُها لا يكون فيها الترادُف إلا بتخريج بعيدٍ عزفنا عنها، والبحث في هذا المجال لا يزال بِكرا لمن أراد أن يستقصيَ جميعَ ما وَرد، وكذا في الدراساتِ المقارِنة بين اللغات في مسألةِ الترادُف؛ فلا تكادُ تخلو لغةٌ منها؛ إذ الأصلُ في وضْع الألفاظ يكون لمعنًى واحِد ثم يتطوّر الاستعمالُ لتشتركَ معانٍ أخرى فيه.

وأهمّ النتائج التي توصّلنا إليها هي:

ـ الترادف واقعٌ في كثير من لُغات العالَم؛ فلا تكاد تخلو لغةٌ من معاجمَ تحاولُ إيضاحَ الفُروق في المعنى أو الأصل أو الاستعمال، واللغةُ العربية ليست بِدْعا في ذلك.

ـ العِللُ التي يتعلّلُ بها مَن يقولُ بالترادُف أغلبها يتجاوزُ الدائرةَ اللغويةَ إلى أبْعاد أخرى هي من حيثياتها؛ كالسياق والبيئة والإشارة والإيحاء والحُمولة الدّلالية والمعرفية.

ـ الخلافُ في المسألة يتراوحُ بين مَن خَفِيَ وجْهُ الفَرق عليه فقال بالترادُف و مَن لم يخْفَ عليه فاشتدَّ في الإنكار على مَن يقولُ بالترادف.

ـ المنكِرون للترادُف والمثبِتون له كلُّهم مِن كِبار اللغويين ـ على الأقلّ مَن ذكرناهم في متن البحث ـ فالمسألةُ تبقى بلا حَسْم خاصّةً ما تعلّق منها بلهجات العرب.

ـ النموُّ اللغوي صيَّرَ للمعنى الواحِد ألفاظا كثيرةً؛ والاختلافُ تَراوحَ بين الدّلالة على الذات أو على الوصْف فيها.

ـ دلّلْنا على وُجود الترادُف في القراءات القرآنية بشواهِدَ ونماذجَ من الأسماء والأفعال كعيّنةٍ نحكُم من خلالِها على مثيلاتها.

التوصيات:

لا يزالُ المجالُ بكرا في المواضيع اللغوية في القراءات القرآنية؛ فأغلبُ الدراسات هي في القرآن الكريم لا في قراءاتِه، ومن المواضيع التي نراها جديرةً بالبحث: قضيةُ المشترك اللفظي ومسألة التضادّ في ألفاظ القراءات القرآنية، وكذا العلاقات بين الدلالات اللغوية والدلالات الاصطلاحية في الحقل القراءاتي.

الهوامش:

[1] ينظر: ج. فندريس ، اللغة ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ، سلسلة ميراث الترجمة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، مصر 2014م ، ص 242.

[2] Rénan , langues Sémitiques , p 387.

[3] ينظر: ابن منظور، لسان العرب ، ج6 ، دار صادر بيروت ، ص 136 . ومادة (ردف) في تاج العروس ، الزبيدي.

[4] ينظر : الشريف الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق: د. محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار النفائس ، ط1 ، 2003م، ص119.

[5] سورة يوسف ، الآية 86.

[6] سورة التوبة ، الآية 78.

[7] سورة المائدة ، الآية 48.

[8] سورة المدثر ، الآية 28.

[9] سورة البقرة ، الآية 171.

[10] سورة الأحزاب ، الآية 67.

[11] سورة البقرة ، الآية 157.

[12] سورة المرسلات ، الآية 6.

[13] ينظر: أبو البقاء الكفوي ، الكليات ، تحقيق : د. عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ط 2 ، 2012م، ص 263-264.

[14] سيبويه ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 2004م. ج1/ص 24،

[15] ينظر: السيوطي ، بغية الوعاة 1/ 82 ، و2/295 ، وحاجي خليفة ، كشف الظنون 1/ 87 و 2 / 1429.

[16] ينظر: معجم المعاجم ، ص 285 و283 ، و ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ، ص 21.

[17] ينظر: الفهرست ، ص 87 ، وفيات الأعيان 2 / 433.

[18] ينظر: طبقات المفسرين ن 2 / 269 ، هدية العارفين ، 2 / 20.

[19] ينظر: الثعالبي ، فقه اللغة ، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م، ص296.

[20] ينظر: نولدكه ، اللغات السامية ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب ، القاهرة ، 1963، ص81.

[21] أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: د.كمال بشر، ص 100 القاهرة، 1962.، ص 100

[22] ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، القاهرة، عالم الكتب، طبعة 1998، ص 223.

[23] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24] ينظر: المرجع نفسه، ص 118.

[25] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26] ينظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، القاهرة، 1965م، ص 178.

[27] ينظر: المرجع نفسه، ص 178، 179.

[28] ينظر: حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، ص 157.

[29] السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، دار إحياء الكتب العربية، ط3. ج1/ص .403

[30] المصدر نفسه، ج1/ص 405.

[31] أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق: السيد أحمد صقر، ص 116، د.ت.

[32] السيوطي، المزهر، ج1/ص 185.

[33] ينظر: عبد الغفار حامد هلال، علم الدلالة اللغوية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2012م، ص96.

[34] السيوطي، المزهر، ج4/ص 405، .406.

[35] سورة النور، الآية 24.

[36] سورة التوبة، الآية 74.

[37] سورة الإسراء، الآية 15.

[38] سورة الأنبياء، الآية 107.

[39] ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1970م. ص 299، 300

[40] ينظر: جرجي زيدان، اللغة العربية كائن حي، دار الهلال، القاهرة، د.ت.. ص 59

[41] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص 43، وينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج9/ ص 204 .

[42] ينظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت ، ص 457،.

[43] ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص 295.

[44] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية، ص 31، 32.

[45] سورة القارعة، الآية 5.

[46] معجم القراءات القرآنية، أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط1، 1985م. ج8/ ص221،

[47] سورة البقرة، الآية 144.

[48] معجم القراءات القرآنية، ج1/ ص124.

[49] ينظر: عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ط1، 2009م. ص195.

[50] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت. ص260.

[51] سورة الأنبياء، الآية 96 .

[52] معجم القراءات القرآنية، ج4/ ص152.

[53] ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج17/ ص 92.

[54] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص110.

[55] سورة الكهف، الآية 96.

[56] عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص195.

[57] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص276.

[58] عبده الراجحي، اللهجات العربية، ص 195.

[59] سورة البقرة، الآية 182.

[60] معجم القراءات القرآنية، ج1/ ص140.

[61] ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، 1952م. ج2/ ص270

[62] سورة الصافات، الآية 11.

[63] معجم القراءات القرآنية، ج5/ ص231.

[64] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 449.

[65] ابن منظور، لسان العرب، ج13/ ص193.

[66] سورة المزمل، الآية 6.

[67] معجم القراءات القرآنية، ج7/ ص 253.

[68] ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، 1978م. ج29/ ص 105

[69] سورة النور، الآية 27 .

[70] ينظر: معجم القراءات القرآنية، ج4/ ص 246.

[71] ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص28.

[72] سورة يوسف، الآية 27.

[73] ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج8/ ص21.

[74] ابن منظور، لسان العرب، ج12/ ص34.

[75] سورة النور، الآية 22.

[76] ينظر: معجم القراءات القرآنية، ج4/ ص243.

[77] ينظر: داود سلوم، المعجم الكامل في لهجات الفصحى، ص17.